الأزهر وطريق إصلاحه

ربط حاضر الأمة بماضيها

للدكتور محمد البهي قرقر

ليست فكرة إصلاح هذا المعهد العظيم حديثة النشأة ؛ وليست كل محاولة لإصلاحه كانت ناجحة ؛ وليس كل من قام بأمر الاصلاح فيه كان موفقاً . ولا أريد هنا أن أسرد الأدوار التي مر بها الإصلاح ، وعدد الخطوات التي أخفق فيها السعي ، والأخرى التي كان له فيها بعض النجاح ؛ إذ كل باحث في أمره يوقن أن الخطوة الأولى التي كانت موفقة فيه هي التي خطاها الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، وأنه هو الذي يعتبر أول مصلح كانت له فكرة ، وبجانبها شخصية ذات إرادة مستقلة ، وبسببه حافظ الأزهر على حياته ، وإن كانت حياة الهرم الذي تعوزه زيارة الطبيب الحاذق من وقت إلى آخر . وبالرغم من وهن هذه الحياة كان ما قام به الإمام هو دور المصلح وداعية البطولة في زمنه

استمر الأزهر بعد ذلك في حياته التي يحس فيها بضعف ، تارة يشتد إذا لم يجد في طبيبه صفة المهارة — وكثيراً ما كان ذلك — وطوراً يخف إذا واتاه القدر بمن يواسيه أكثر ممن يطببه . تغيرت فيه عدة مناهج واستبدلت نظم بأخرى باسم الإصلاح ؛ ومع ذلك لم يتم إصلاح أو لم يتكون أساسه ، لأن الإصلاح الذي يجب أن يكون ، وبعبارة أخرى الذي يحمل عليه قانون الوجود الحالي المبني على تنازع البقاء وحياة الأصلح ليس علاجاً مؤقتا وإنما هو إيجاد حياة من نوع آخر ، حياة فتوة لها قوة ممانعة ومقاومة وقوة كفاح وهجوم . ظل أمره كذلك حتى هيأ القدر له ، وشاء أن يكون تلميذ الإمام ، رجلا [1] من أولئك الذين لهم عقول مستقلة بعيدة المدى في التفكير ، ولها قوة إرادة في التنفيذ في صمت ورزانة . فأول خطوة ضرورية رآها للإصلاح أنه عمل على إشعار الأمة بالأزهر وإتصال الأزهر بالأمة ، فحياته إذن يجب أن تكون من نوع حياة الأمة ، ومصر أمة ناشئة فتية

أيدت هذا العمل عقلية [2] أخرى من هذا الطراز — وعقول الإصلاح دائما متفقة متجانسة — ولكنها أشعرت الأمة هذه المرة بصورة أخرى هي أن لا غنى للأمة المصرية ولا للعالم الاسلامي عن الأزهر . ولكن كيف يؤدي رسالته الوطنية والعالمية في القرن العشرين ؟

تنبهت الأذهان وعنى الكتاب والباحثون في الشئون الاجتماعية والعلمية بهذا الموضوع ودونوا لهم آراء في ذلك وآسف أني لم أطلع عليها . وقد يجوز أن يكون هؤلاء قد عالجوا الموضوع من نواح عدة ، وأظهروا رغباتهم الاصلاحية لهذا المعهد التاريخي الكبير في صور يرون فيها مهمته في العصر الحديث . ربما يكون بعضهم قد تناول مثلا تحديده كمدرسة عالية لفئة خاصة من الأمة يجب عليها قبل الالتحاق بها استيفاء شروط مخصوصة ودراسة إعدادية على نمط خاص أو غير ذلك من التنظيم والمناهج

ولا أريد أن أبحث الآن : كيف يكون الأزهر معهداً نظامياً كمعاهد الحكومة العالية ، لأني لا أبغي أن يكون الأزهر على هذ النمط الآلي ، وإنما أريد أن أبحث : كيف يتحول الأزهر إلى جامعة علمية حديثة مع الاحتفاظ بصبغته الماضية التي خولت له أن يكون هو المدرسة الوطنية الوحيدة في مصر في الوقت الحاضر بحكم اعتماده على ثقافة الأمة الموروثة ، والتي منحته صفة روحية باعتبار أنه المكان الأول في العالم الإسلامي للعناية بالدين ونشره ، ثم كيف يكون الطريق العملي لذلك ، إذ كثيراً ما كتب دعاة الاصلاح وكثيراً ما حاول القائمون بأمره أن يصلحوه ، ولكنها كانت كتابة يغلب عليها الخيال ، ومحاولة كان أساسها تقليد نظم مدارس أخرى : مدارس وزارة المعارف التي هي في نفسها أيضاً بناء مرقع روعي فيه تقليد رسوم متباينة ؛ وهذه المحاولة كادت تخرجه عن الغرض الذي يجب أن يكون له الأزهر والذي كان له منذ قرون مضت

وغاية الأزهر (أولا) تهذيبية علمية وطنية ، لأنه يقوم بتربية جزء عظيم من أبناء الأمة ويُعدّه فوق ذلك لتولي عدة مصالح في الشعب ، لا يمكن تعويضه فيها ، لها قيمتها في إصلاح [1] نواحيه الخلقية والاجتماعية ، وبالأخص في رعاية الأسرة التي هي الدعامة الأولى في بناء الأمة . و (ثانياً) دينية عالية لأنه المرجع الأول لحل المسائل الدينية التي لها ارتباط وثيق بالشئون الاجتماعية

(١) فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي (٢) دولة علي ماهر باشا

(١) التهذيب المدرسي ، التهذيب الشعبي بوساطة الوعظ ، ثم رعاية المحكمة الشرعية للأسرة ومحافظتها على كيانها

والاقتصادية لأمم العالم الاسلامي والتي يتوقف تقدم تلك الأمم أو تأخرها بنسبة كبيرة على فهم الروح الدينية (الفقهية) أو عدم فهمها لهذه المسائل الحيوية

ومن يفكر أو يحاول أن يحمل غيره على أن يعتقد أن غاية الأزهر روحية بالمعنى الكنسي ، فمبعث تفكيره هذا التقليد السلبي الذي طغى على النواحي العقلية في مصر الحديثة ، ومنشأ محاولته جهل أو تجاهل بالتاريخ أو سوء فهم للاسلام وللأزهر ولأثره في تكوين النهضة الوطنية ، أو هو نفسه لا يقيس وطنية إلا بمقياس العاطفة ، وما كانت العاطفة في يوم من الأيام حدى الدعامات في بناء راسخ !

ولكن الأزهر الآن يؤدي مهمته كما كان يؤديها في الغابر م تلقين ما للماضي من ثقافة ؛ وربما يُدَّعى أن هذا التلقين وحده يُعد الناشئة للكفاح في الحاضر ولا يقرب فهم المسائل الدينية اجتماعية من ضوء الواقع الحالي ، فذلك التلقين لا يبقى لهذا اية من وجود الأزهر ، لأنه أداء جزء من مهمة يجب أن يتصل تواً أداء البقية وهي ربط الحاضر بالماضي . وهذا هو الطريق لي ، فيما أظن ، لتحقيق غاية الأزهر التهذيبية والدينية

ربط الحاضر بالماضي ليس معناه ضم ثقافة أجنبية جديدة حدة إلى ثقافة الماضي ، وإضافة علوم حديثة مستقلة إلى ان للأمة في الأزمان الغابرة ، وإنما هو السير في البحث العلمي أثاث الثقافة الموروثة ، ولكن في ضوء مقتضيات العصر ر . وهذا السير يتطلب التخصص في العلوم المختلفة ولكن في موضوعات الفن الواحد . فمثلا في الفقه يجب أن يكون هناك أساتذة فنيون في موضوعاته مزودون بثقافة أخرى لها ارتباط وثيق بالموضوع المتخصص فيه . فيجب أن نرى أساتذة في الفقه الجنائي ، وهو يشمل على سبيل التقريب: الديات وفرض مبدأ التعويض المالي . التعزير بالحبس . القصاص . إعفاء الوالي من إقامة الحد إذا رأى المصلحة العامة في ذلك ... وأساتذة في الفقه المدني والتجاري ، وهو يشمل على سبيل التقريب : عقود البيع ، نظرية الربا وربط الفائدة . الرهن . الايجارة ، الشفعة . عقود الشركات المختلفة . مبدأ الضمان والكفالة . الهبة . الوصية ... وأساتذة في الفقه الشخصي ، وهو يشمل على سبيل التقريب : عقد النكاح ، حقوق الأسرة . النفقة ، الارث ، نظرية إثبات النسب والتبني وعلاقة ذلك بالمجتمع وتكوين الأسرة . نظرية الحضانة الفردية وارتباطها[1] بنظرية قيام الدولة بالعناية بالأطفال إجبارياً لشقاق في العائلة أو طروء جنون على أحد الزوجين أو ما شاكل ذلك ... وأساتذة في الفقه الاداري والسياسي ، وهو يشمل على سبيل التقريب : معاملة الأجانب ونظرية الأقلية في اعتبارها هيئة منعزلة لها احترام عاداتها مالم تخل بنظام الأكثرية وعليها ضريبة (الجزية) للقيام برعايتها وحفظ مصالحها . مبدأ الجهاد . قوانين الأسر والعتق . مبدأ الشورى في نظام الحكم الداخلي . مبدأ التفويض للوالي . الاستقلال في السياسة الخارجية (نحو العدو مثلاً) وإعلان الحرب

وفي الفلسفة والأخلاق يجب أن يكون هناك أيضاً فنيون في موضوعاتها المختلفة على هذا النمط ، فإخصائيون في فلسفة الاسلام ، وتشمل على سبيل التقريب : محافظة الاسلام على وحدة الأمة والرغبة في عدم تصدعها . نظرية الايمان بوحدة الخالق . تفضيل صلاة الجماعة . ضرورة الاجتماع كل أسبوع في مكان واحد لا فرق بين غني وفقير ورفيع ووضيع لتجديد عهد الأخاء وهو الغرض من صلاة الجمعة . ضرورة اجتماع أغنياء مسلمي العالم في أول مكان للدعوة الاسلامية كل عام لتذكر عهد النشأة والاستمرار في التمسك بالعقيدة والعمل على نشرها ، وهو الغرض من الحج . العمل على إشعار ذوي النفوذ المالي بوجوب العطف على الفقراء إبقاء للمال في أيديهم وقمعاً لثورة نفسية بين الطبقات المعدمة ربما تتبعها ثورة أخرى اجتماعية (بلشفية) تقلب نظام الحكم في الأمة وتنزع رؤوس الأموال من أيدي أصحابها . . وهو الغرض من الزكاة . واخصائيون في الفلسفة الاسلامية ، وتشمل على سبيل التقريب : لا حكاية ما قال ابن سينا وتبعية

(١) هو نظام حكومي في ألمانيا وفي بعض بلدان أوربا يعرف هنا باسم « Soziale Fürsorge » وغايته وقاية الطفل في الصغر من تأثر نفسه بالشقاق الحاصل في العائلة أو من أي خلل آخر يطرأ في بنائها ويكون من وراثه تحوير سلوكه الشخصي لشقائه هو أو شقاء المجتمع الذي هو فيه بسببه فهو [illegible] الوقاية من أمراض اجتماعية

ابن رشد لأرسطوطاليس وأمثال ذلك مما ينقل فحسب ، وإنما قبل كل شيء بيان منزلة الفلسفة الإغريقية ، وهي الفلسفة الإلهية وعلاقتها بعلم «التوحيد» الاسلامي، ثم مقدار نصيب الاسلام من هذا العلم . ثم بيان مساهمة العلماء الاسلاميين ومساهمة الثقافة الاسلامية في خلق فلسفة إسلامية وتكييفها ... وإخصائيون في *أصول الاسلام والاصول الاسلامية* : وتشمل على سبيل التقريب : المبادىء الخلقية التي جاء بها الاسلام . مقارنة ذلك بالنظريات الأخلاقية الاسلامية التي اشتغل بها علماء الاسلام والتي قد لا يمت[1] بعض مبادئها إليه بصلة إيجابية . مقارنة ذلك أيضاً بالنظريات الخلقية الحديثة . دراسة المبدأ الخلقي ونظرية اعتباره المطلق أو المقيد ...

وهذا التخصص ليس تبويباً جديداً أي صورياً فحسب ، وإنما هو أبحاث علمية مستقلة يجب على من يقوم بها دراسة ما يشبهها في الثقافات الأخرى حتى يتكون مبدأ المقارنة والاستنتاج ، ثم يتبعه مبدأ التطبيق العملي ، وهما من عوامل التقدم في البحث العلمي ، لأن حكاية ما قيل فقط لا يسمى بحثاً فضلا عن وصفه بالعلمي . فأستاذ الفقه الجنائي مثلاً يجب أن يدرس علم النفس الجنائي: Kriminal psychologie ، الذي هو مختص ببحث أنواع الإجرام النفسي ، ثم بحث التشريع الجنائي الحديث وكيفية بنائه على التجارب النفسية بوساطة هذا العلم . وأستاذ الفقه المدني والتجاري عليه أن يلم بالنظم الاقتصادية الحديثة . وأستاذ الفقه السياسي ينبغي أن يلم بالتاريخ الاقتصادي والسياسي وبفلسفة[2] الحرب وفلسفة مبدأ حكم الأقليات .

وبواسطة هذا يتسنى لهؤلاء الأساتذة لا بيان مزايا الدين الإسلامي فحسب في هذه الموضوعات مثلاً، بل حمل الأمم الإسلامية على الاعتماد في تشريعها الحديث في كل أنواعه على مبادىء الفقه الإسلامي ، ثم في الوقت نفسه ردّ حملات العلماء الأجانب على الإسلام التي سببها الجهل أو الرغبة في إبعاد المسلمين عن اتباع دينهم باسم « خدمة العلم » و « حرية البحث » حتى يدب فيهم ضعف الشقاق ، بين المصمم على اتباعه وبين الواهم في التخلي عنه ، بين « الرجعي » و« المجدد » وبين« القديم » و « الحديث » . وما خدمة العلم هنا إلا الرغبة في السيادة واستمرار سيطرة « الحضارة الأوربية » على الشرق الإسلامي

وعلى هـذا النمط في التخصص يسير الأمر في العلوم الأخرى . وبخاصة تجب مراعاة هذه القاعدة بدقة في قسم الوعظ والإرشاد . ففضلا عن أن تتبع فيه دراسة أساليب التبشير الحديث يلزم دراسة نفسيات الشعوب الاسلامية المختلفة وعاداتها ولغاتها . وبناء على هـذه الدراسة الأخيرة ينشأ التخصص والتوزيع ، فيجعل : قسم للوعظ والارشاد للشعب المصري فالنوع الحملي منه : يتولى قبل كل شيء بحث نفسية المجرمين ونوع الاجرام الذي يرتكب بكثرة بمساعدة الاحصائيات الرسمية لذلك ، ثم دراسة أسلوب الوعظ الذي يمكن أن يؤثر في مثل هذه النفسية ويحملها على الاقلاع أو التقليل من هذا الاجرام ...

والنوع الثقافي الآخر : يتولى الإعداد لتهذيب شعبي مبني على البساطة ، وكيفية الخطابة في المساجد ، وإعطاء دروس للشعب فيما هو في حاجة إليه من الثقافة الخلقية والواجبات الفردية والجمعية

ويجعل قسم للوعظ والدعاية : لشعوب الشرق الأدنى

« « « : لسكان الشرق الأقصى والهند وجزر

« « « : لشعوب البلقان

« « « : لسكان السودان والحبشة وجنوب أفريقيا

« « « : لسكان أمريكا الجنوبية

وفي كل قسم من هـذه الأقسام تدرس فضلاً عن لغة الشعب ، القواعد الخلقية التي يسير عليها، والمذهب الفقهي السائد فيه . وبناء على هذه الدراسة تحدد موضوعات الوعظ الديني التي تجب دراستها في كل قسم ، لأن الغاية من الوعظ هي حمل الشعب بطريق التأثير في نفسه على اتباع قواعد خلقية معينة يقتضيها النظام العام لحفظ وحدة الأمة وبغية سعادتها . والغاية وإن كانت واحدة فإن الطرق إليها مختلفة لضرورة اختلاف النفسيات التي

(١) فبعض مبادئ الأخلاق التي توصف بالاسلامية وبالأخص الصوفية والتي عنى بها علماء القرن الرابع الهجري هي مبادئ مدرسة الأسكندرية ، المدرسة الأفلاطونية الحديثة التي تأثرت بالأخلاق الدينية اليهودية ثم المسيحية

(٢) للأستاذ الفيلسوف الألماني هيجل Hegel في هـذا الموضوع نظريات فلسفية عظيمة الشأن ، هي أساس فلسفة هذا النوع في أوربا على العموم

تخضع فى تكونها إلى الوراثة والتربية الأولى والمجتمع فيما بعد ، وهذه العوامل ليست متشابهة فى كل أمة

هذا فضلا عن أن دراسة نفسيات هذه الشعوب وثقافتهم هى فى نفسها دراسة إسلاميـة يرجى من ورائها تعارف الأمم الإسلامية وتزايد الرابطة بينها

وبهذه الأهمية أصبحت دراسة علم النفس التجريبي اليوم ، ومن خصائصـه وصف النفسيات المختلفـة للأفراد والأمم ، العامل الأول فى السيطرة على النفوس إما لغرض إصلاحها أو بغية استعمارها . ولم يعن الأوربيون بدراسة النفس الشرقية على ضوء التجارب والسلوك الشخصى وكذا بقية الأمم الضعيفة وإنشاء المعاهد [1] المختلفة لدرس ثقافاتهم وأديانهم ولغاتهم حباً أفلاطونيا فى العلم وغراماً خيالياً بالبحث ، وإنما عنوا بها رغبة فى السيطرة والإستعمار العسكرى أو التجارى

وإذا كان التخصص فى الموضوعات الفنيـة يحتاج إلى الاتصال بالأوساط العلمية الأخرى ، الأجنبية عن الأزهر ، فإن التخصص فى أقسام الوعظ أشد احتياجاً إلى الاتصـال بالشعوب الاسلامية المنتشرة فى بقاع الأرض ودراسة أحوالها النفسية والشعبية لبناء الوعظ على أساس متين تكون من ورائه فائدة محققة ، وتتقوى بذلك رابطة مصر العلمية والأدبية بالأمم الإسلامية الأخرى ، وهى رابطة يجب أن تحافظ عليها لأنها سبب نظمة مصر فيما بينها وتعلق تلك الشعوب بها

وبهذا يكون للأزهر صلة حية بالشعب إذ يصبح المدرسة المالية لثقافة وطنية مؤدية لمقتضيات العصر الحاضر ، ومعهد البحث للتشريع الوطنى الحديث ؛ وفى الوقت نفسه يقوم برسالته الروحية فى بقية العالم الاسلامي ، ومن ورائها يؤدى رسالة مصر الأدبية فى الخارج . وماهذه المنزلة العالية التى تتمتع بها مصر اليوم فى الشرق إلا لهذه الصلة الروحية واعتقاد أن مصر تملك أكبر مكان للدراسات الاسلامية كما تملك مكة للكرمة أول مكان للدعوة إلى الاسلام . ولولا الأزهر لما نالت مصر تلك المنزلة بين الأمم الشرقية ، فهى تمثل سياسياً تقريباً فى كل بلدان العالم الأخرى التي لاتتصل بالاسلام اتصال تدين ، وتتفق على ذلك مبالغ جسيمة ، ومع هذا فمصر الحديثة صاحبة النهضة التى لاتقل شأناً عن نهضة كثير من بلدان أوربا الجنوبية والشرقية مازالت هنا فى أوربا هى مصر الافريقية

إن الأزهر قارب أن يبلغ ألف سنة ، وتلك مفخرة لم تصل إليها إحدى الجامعات العالمية بعد ، والعالم يريد أن يرى رؤية محسوسة مبلغ التطور الذى وصل إليه والذى هو مقياس نهضة مصر العلمية الوطنية ، لا التقليدية ، ويعرف أى القواعد يسير عليها فى بحثه ، وأية نظرية يأخذ بها فى تأدية رسالته ، بعد ما وقف بالبحث عند طريقة [1] القرون الوسطى زمناً طويلا وبعد ما كان فى حيرة من أمر رسالته ، حيرة سببها عدم معرفته بها

إن مصر اليوم والعالم الاسلامى يشهد بما لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى من عمل جدى ملموس فى إصلاح هذه الجامعة العالمية ويعترف بقدرته على إتمامه اعترافاً مرجعه الاقتناع بأن له شخصية مصلح في التاريخ الحديث ، وما أقل وجودها في العالم وأندرها فى مصر وأشـدها ندرة فى الأزهر . كل يعقد عليه أملاً كبيراً ، أمل البناء والتشييد فى الاصلاح . كل يرتقب ثورة فكرية ، وانقلاباً إصلاحياً له حدثه التاريخى ؛ فالوقت تأخر ، والحاجة ماسة ، والعقول متهيئة لهذا الانقلاب ، والنفوس ملت هذه التعديلات الصورية

مولاى المراغى : إذا كان المصلح الأول والوحيد قبلك وهو الأستاذ الامام ، قد حافظ على حياة الأزهر فحسب ، ولم يتركه لك فتياً بل سلمه إليك كهلا يعانى ألم الضعف ، فإن ذلك ما أمكنه وأمكن زمنه معه أن يؤديه للأمة والتاريخ ؛ ولكنك أنت فى زمن توفرت فيه وسائل الاصلاح وانبثقت روح الشباب والتجدد فى كل شىء ، فهمتك من هذا النوع ، ولها حباك القدر بتلك الشخصية ، وبتأديتها ستكون موضوعاً للتاريخ والبحث

محمد البهى قرقر
دكتور فى الفلسفة وعلم النفس
وعضو بعثة الامام الشيخ محمد عبده

(١) فى ألمانيا يوجد فى كل جامعة من جامعاتها وهى ١٧ جامعة عدة معاهد مختلفة لهذا النوع من الدراسة كمعهد ثقافة الشرق الأدنى ، المعهد الصينى ، المعهد الأفريقى ، معهد سكان جزر الملايا وجاوة ، معهد درس ثقافة أوربا الشرقية وبلاد البلقان ... وكان يطلق عليها فيا قبل معاهد الاستعمار

(١) تلك الطريقة هى تكرار رواية المنقول ، الجدل فى الصور والألفاظ ، قصر التهذيب على الناحية العقلية . شحذ الذهن وقلة الاهتمام بالناحية النفسية الأخلاقية وانعدامه بالنسبة للناحية الجسمية التي أثبت علم النفس التجريبى اليوم مدى ارتباطها بالجانب العقلى والنفسى وأثر تربيتها فى تكوينهما تكويناً إيجابياً